«دراسة الأساليب البلاغية في خطبة الشِقشقية»

عزت ملا إبراهيمي (أستاذة مشاركة في جامعة طهران. إيران/ الكاتب المسؤول)

سيد أحمد موسوي پناه (طالب مرحلة الدكتوراه /جامعة طهران)

A study on the Rhetorical styles of the sermon of al-Shiqshiqiya

Ezzat Molla-Ebrahimi (Associate Professor, University of Tehran)

S. Ahmad Mousavi-Panah (Ph.D. student, University of Tehran)

mebrahim@ut.ac.ir

Abstract

the Rhetorical styles have played a significant role in Arabic literature since old ages until today. As such the belletrists have always tried to beautify their works and styles to impress their recipients to draw the readership's attention.One of the styles, which attracted the attention of the critics and researches, was Imam Ali's. Because Imam Ali has always been using a new beautiful style which impressed its readership. The sermon under consideration is not an exception. Imam Ali adresses two importants issues: the wording which is accurate, beautiful, and pleasant. The meaning which is compelling and rich.

الملخص:

بداية يجدر أن يُذكر أن هذا البحث يتبع المنهج الوصفي –التحليي لإظهار جمال الأسلوب المتخذ في هذه الخطبة إذ إنّ هذه الأساليب البلاغية أدّت منذ فترة بعيدة من الزمن وإلى يومنا الراهن، دورا مهما في الأدب العربيّ بأسره حيث إن الأدباء على مدى العصور المتتالية والمتتابعة أجهدوا أنفسهم إلى أن يطرزوا كلامهم وينمقوا أساليبهم إلى حد كثير وذلك بغية أن يستقطبوا روح المخاطب ويستميلوها ومن هذه الطرق الّتي حصلت على إعجاب الكثيرين من الباحثين، هي منهج الإمام عليٍّ عليه السّلام في طريقة إيراده للخطب إذ إنّه يتخذ سبكا طريّا تنعكس فيه صراحة في المعنى وسلامة في الذّوق ويتردد فيه التّكرار لأجل تقرير الكلام وتأثيره على المتلقي وليس أسلوبه عليه السّلام مجرد ألفاظ تخلو عن ضمّ معنى بليغ تحت طياتها بل هي كلمات يكمن في داخلها الصدق، والوجد، والعاطفة؛ وأيضا يتبين أن الإمام في هذه الخطبة إهتمَّ بجانبين أساسيين: أوّل هذين الجانبين المعنى فنرى أنّ الإمام عليه السّلام كلامه يشتمل على العاطفة المتوقدة ولم يستعمل الأساليب البلاغيّة على حساب المعنى بأن يطرز اللفظ ويغفل جانب المعنى بل العكس حيث نرى الإمام حَفَظَ الجانبين أي الفظ والمعنى كذلك لم يأت بهذه الأساليب تكلّفا بل جاءت عفويّةً لتخدم المعنى، وفي الجانب الأساسي الثاني لم يغب عن لإمام عليه السّلام أثر الموسيقى ودورها؛ فقد أورد الإمام عليه السّلام تعبيراته موزونة، حافلة بالموسيقى والإيقاع منسجمة تماما مع الخطبة ونبذ في كلامه أن يستعمل الغريب الوحشي وما تنبو منه الأذن بل جلّ كلامه رقيق تشتاق إليه النّفس وتطلب أن تتزود من.

الكلمات المفتاحيّة: خطبة الشقشقى البيان، المعاني، البديع، الأسلوب البلاغي.

المقدمة:

الشقشقة بالكسر شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج وإذا قالوا:خطيب ذو شِقشِقة فإنَّما شبهوه بالفحل والهدير صوتها؛ يتظلم الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مما لحقه من الغبن في صرفه عن الخلافة بعدما كان المهيأ الأكفأ لها وتُظهر هذه الخطبة الشريفة براعةَ الإمام على سَوق الكلام سياقةً يتجلى فيها جمال الفظ ودقة اختيار الفظ وعلوّ المعنى ولا نرى الإمام عليه السلام يرجِّح إحدى الكفتين من بين لفظ ومعنى على الأخرى بلا مرجح بل هو إذا استعمل صنعةً لا يستعملها متكلِّفا إياها بل ليُخدَمَ اللفظُ وتلك الصنعةُ المعنى ويزيد الموسيقى جمالا وإيقاعا.

وقد تبين أيضا أنَّ كلامه عليه السَّلام في هذه الخطبة مترع بالمجاز والتشبيه والكناية في أعلى حالها وأجمل طرقها ونرى الإمام عليه السلام يظهر لنا المعنويَّ في لباس الحسيّ والحسيَّ في لباس العقليّ والمعنويّ ليكون أجملَ وأسمى.

صحة نسبة الخطبة لعليٍّ عليه السلام

يقول ابن ابي الحديد عن قول ابن عباس «ماأسفت على كلام....» في نهاية الخطبة حدَّثني شيخي أبو الخير مصدق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث مائة وستمائة قال:قرأت على شيخي أبي محمد عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة فلمّا انتهيت إلى هذا الموضع قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له وهل بقي في نفس ابن عمِّك شيء إلى أن قلت لابن الخشاب أتقول:إنها منحولة؟ فقال لا واللهِ وإني لأعلم أنها كلامه كما أعلم أنَّك مصدق قال فقلت له إن كثيرا من الناس يقولون إنها كلام الرضي رحمه الله فقال أنَّى للرضي ولغير الرضي هذا النَّفَسُ وهذا الأسلوب قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنَّه في الكلام المنثور ثُمَّ قال: واللهِ لقد وقعت على هذه الخطبة في كتب صُنِّفَت قبل أن يُخلَق الرضي بمائتي سنةٍ ولقد وجدتُها مسطورةً بخطوط أعرفُها وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب والد الرضي" (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة –صص 205–207بيروت: مؤسسة الأعلمي،1415هـ–1995م.)

أسئلة البحث والفرضيّات:

ما الباعث الذي دفع الإمام حتى يستخدم مثل هذه الفنون البلاغية ؟

ما أبرز الأساليب التي اقيمت على أساسها هذه الخطبة والتي قام باستخدمها الإمام علي (ع)؟

ما أهمّ ميزات هذه الخطبة ؟

ووفقا لهذه الأسئلة التي ذُكرت، يُسعى إلى إثبات الفرضيّات التّاليّة:

– استخدم الإمام علي(ع) كافّة أنواع الأساليب البلاغية للوصول إلى الصّور الحسيّة ذات الأثر البليغ على المتلقّين في النّفس والشّعور.

– الأسلوب المتّبع في هذه الخطبة خلافا للخطب الجاهليّة والأشعار، هوأسلوب القرآن الكريم.

– تميّز أسلوب الإمام علي(ع) بالجزالة والصّراحة في المعاني والإكثار من الفنون البلاغيّة والاتّسمام بالمعاني القرآنيّة.

خلفيةُ البحثِ

في هذا المقام من البحث حريٌّ بالذكر في أنّ ثمّة عدداً كبيراً من البحوث والدّراسات عالجت خطب نهج البلاغة وقد تتطرقت إلى الأساليب البلاغيّة وجمالياتها على الإطلاق.إليك بعض الدراسات وما كتب حول بلاغة نهج البلاغة:

مقدمة لشرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم البحراني، تقديم وتحقيق عبدالقادر حسين، بيروت: دار ضياء الدين بن الأثير،القاهرة: نهضة مصر.

الطباق في خطب الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة/دراسة بلاغية–دلالية،رضاته حسين صالح–مجلة ميسان للدراسات الأكادمية –المجلد التاسع–العدد السابع عشر–كانون الأول 2010.

من بلاغة الإمام عليّ في نهج البلاغة–عادل حسن الأسدي–الطبعة الأولى 1347هـ ق–قم.

المواصفات الفنية والبلاغية للحيوانات في كتاب نهج البلاغة–ناديا ثقيل بورفجليل حاجي بور طالبي،سعد الله همايوني– مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة–السنة 12،ربيع 1438 هـ.

التعريف بالبلاغة:

قال ابو يوسف اللسكاكى: هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدّا له اختصاص بتوفيره خواصّ التراكيب منها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها، أعني البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينا لا يتراءى له نارهما، وبينهما مراتب، تكاد تفوت الحصر، متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بأصوات الحيوانات، ثم تأخذ في في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدا لإعجاز عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه، ماستقامة الوزن: تُدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة.(أبو يوسف السكاكي، مفتاح العلوم،1407،ص 416).

قال أبو هلال العسكريّ في ضرورة البلاغة: "اعلم أنَّ أحقّ العلوم بالتعلوم وأولاها بالتحفظ–بعد معرفة الله جلّ ثناؤه–علمُ البلاغة والفصاحة" (أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر–1319هـ ق).

وقال أيضا في تعريفها:"البلاغة من قولهم: بلغتُ الغايةَ إذا انتهيت إليها وبلَّغتُها غيري. ومبلغ الشيء: منتهاه. و المبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسُمِّيَت البلاغةُ بلاغةً لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمُهُ"(أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، 1319 هـ ق، ص1).

"وكذلك: البلاغةُ تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحةٍ، لها في النفس أثرٌ خلاب، مع ملاءمة كلِّ كلام للموطن الذي يقابله فيه والأشخاص الذين يخاطبون.

فليست البلاغة قبل كلِّ شيء إلا فنّا من الفنون يعتمد على صفاء الإستعداد الفطريّ ودقة إدراك الجمال وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب وللمرانة يدٌ لا تُجحَدُ في تكوينِ الذوق الفنيّ، وتنشيط المواهب الفاترة.

وليس هناك فرق بين البليغ والرسام إلا أنّ هذا يتناول المسموعَ من الكلام وذلك يُشاكلُ بينَ المرئيَّ من الألوان والأشكال أمَّا في غير ذلك فهم سواءٌ فالرسام إذا هَمَّ برسم صورة فكرَ في الألوان الملائمة لها ثمَّ في تأليف الألوان بحيث تختلب الأبصار وتثير الوجدان والبليغ إذا أراد أن ينشيء قصيدة أو مقالة أو خطبة فكر في أجزائها ثمَّ دعا إليه من الألفاظ والأساليب أخفها على السمع وأكثرها اتصالا بموضوعه ثمَّ أقواها أثرا في نفوس سامعيها وأروعَها جمالا"(على الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع، 130 هـ ق،صص 8-9ا).

الصور البيانية في الخطبة:

االبيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه(سعد الدين التفتازاني، شرح مختصر المعاني،1431 هـ ق،ص 281)ومباحثه: التشبيه- المجاز -الكناية.

الإستعارة وخطبة الشقشقية

الإستعارة في الفكر البلاغيّ العربيّ مبالغةٌ في التشبيه أو هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به(أبو يوسف السكاكي، مفتاح العلوم،1407ص 599). فالإستعارة بجميع أنواعها عملية نقل للفظ من مُسَمَّاهُ الأصليّ على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه (الخطيب القزويني،الإيضاح،1431 هـ ق،ص212).و تركيب الإستعارة يحمل معنيين اثنين أو دلالة مزدوجة: دلالة حرفية وهي كاذبة ودلالة مجازية هي المقصودة بأسلوب التشبيه ويستمد البلاغيون القدامى تعاريفهم لاستعارة من هذه النظرية فالإستعارة ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له.

هناك جانبان محوريان يتألفان في تشكيل الإستعارة هما: الأفق النفسي وحيوية التجربة، والجانب الثاني يتصل بالحركة الحيوية وتفاعل السياق التركيبي، حيث يتم التقاء سياقين اثنين ضمن الجملة الواحدة، بحيث تلمح الإستعارة في دلالة لفظة ضمن سياق غريب عنها، فنغدو أمام احتكاك بين الموقف الأصلي للفظ المستعار والموقف الجديد الذي استدعاه (نورالدين دحماني، الوظيفة الجمالية للإستعارة، جوان 2015،ص 14،جامعة الإمان ابن باديس).وهذان الجانب حيان في ما ينتقيه الإمام عليه السلام في استعاراته وتمثيلاته فتجدها ذات حركة ومشحونة بالعواطف والمشاعر.

أما عن تعريف الإستعارة وفضلها فيقول الشيخ عبد القاهر: "اعلم أن الإستعارة...أمدّ ميدانا وأشدّ افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تُجمع شعبها وشعوبها، و تُحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تهدي إليك أبدا عَذارى قد تخيير لها الجمال، وعني بها الكمال وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعا لايقصر، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تتكر، وردت تلك بصفرة الخجل، وركلتها إلى نسبتها من الحجر وأن تثير من معدنها تبرا لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلي، وتريك الحلي الحقيقي وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها ويقول عن فضلها الشيخ: تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد،...ومن

خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر...فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر أعز منها ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"(عبد القاهر الجرجاني،1422هـ ق، أسرار البلاغة، ص 39–40) وهذا الجمال والروعة كلها متاحة ومتوفرة ما سياق لك من نماذج من خطبة الإمام عليه السلام.

إليك الآن هذه النماذج:

التقمص هو لبس القميص شبّه عليه السلام التصدية لأمر الخلافة بمَن لبس قميصا ليس له ولهذه الإستعارة وجوهٍ:

الأول: أنّه عليه السلام شبَّه التصدية لأمر الخلافة بلبس قميص دون سائر الألبسة كالعمامة والرداء وأمثالها لأنَّ القميص بين الأقمصة أقربها إلى جسم الإنسان وأنفعها إليه فأشار عليه السلام بقوله« لقد تقمصها» إلى أنّه ليس بينه وبين الخلافة فصلٌ فهي ملتصقة به التصاق القميص إلى الجسد فلا يمكن خلع يده عنها وهو كناية عن حرصه عليها.

الثاني: لم يقل عليه السلام لبس قميص الخلافة وقال «تقمّصها» للإشارة إلى أن هذا القميص لم يكن له بل كان لغيره...فإنَّ التقمص على اصطلاح الفلاسفة من مقولة الجدة وهي نسبة الشيء إلى ما يحيط به بحيث ينتقل بانتقاله والإحاطة أعمّ من التام وغيره فيشمل التعمد والتقمص والتغسل والتجلبب إلا أنه اختار التقمص لأنه من قبيل الإحاطة التامة.

الثالث: قد استعار في المقام ولم يصرح به لأن البلغاء اطبقوا على أن الكناية أبلغ من التصريح.

الرابع: أنه عليه السلام صدّر الجملة بحرف التنبيه، ثم عقّبها بالقسم، ثم بالام المفيدة للتأكيد ثم بكلمة «قد» التي تفيد التحقيق والتثبيت كل ذلك للدلالة على أن الأمر كذلك حتى لا يشك شاك فيه.

قوله عليه السلام: «تقمصها»، الضمير يعود على الخلافة ويفهم ذلك من المقام ويسمى هذا بالإضمار في مقام الإظهار لأن الضمير لم يذكر له مرجع وشبّه عليه السلام جلوس الخليفة الأول على مسند الخلافة بغير حق بمن لبس قميص ليس له من حيث الحجم والقياس وهذا الكلام وارد على سبيل الإستعارة.

قوله عليه السلام: «ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير»:

"تمثيل «استعارة تمثيلية» لسموِّ قدره كرّم الله وجهه وقربه من مهبط الوحي وأن ما يصل إلى غيره من فيض الفضل فإنما يتدفق من حوضه ثم ينحدر من مقامه العالي فيصيب منه من شاء الله وعلى ذلك قوله ولا يرقى إليّ الطير غير أن الثانية أبلغ من الأولى في الدلالة على الرفعة."(الشيخ محمد عبده، شرح نهج البلاغة،1436–ص27).

قوله عليه السلام:«طويت عنها كشحا»:

أي مال عنها والكلام استعارة تمثيلية شبه من أعراض عن الطعام اللذيذة من أجل صرف الضرر بنفسه عندما ترك الخلافة من أجل مصلحة الأمة ودفع الشر الحاصل من التخاصم عليها.

قوله عليه السلام:« يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير»:

"هذا يمكن أن يكون من باب الحقائق ويمكن أن يكون من باب المجازات والإستعارات فأما على الأول فإنه يعني طول مدة الولاية للمتقدمين عليه فإنها مدة طالت حتى وصل فيها الكبير إلى الهرم والصغير الى زمن الشيب وأما على الثاني فإنه يعني بذلك صعوبة تلك الأيام حتى أن الكبير من يكاد يهرم لصعوبتها والصغير يشيب لأهوالها كقولهم هذا أمر يشيب له الوليد وإن لم يشب على الحقيقة."(ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة،1415،ج 1،ص 54).

"و القصد من هذا التقديم والتأخير التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب كما في قوله تعالى «و ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة» وقوله تعالى:«و قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا»."(جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،1434،ج2،ص 29).

قوله عليه السلام: «صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا»:

استعارة تمثيلية فقد شبه عليه السلام حاله عندما سُلب حقُّه وأُخذ ميراثُه ولا يمكن له أنه يفعل شيئا بحال مَن في عينه قذى أو مَن اعترض في حلقه عظم ونحوه فهو يتألم ويتوجع ولا يستطيع فعل شيء والكلام لبيان شدة ما أضمره من التأذي والحزن إذ يرى أنه أولى بالأمر من غيره ولبيان عنف الخبط الذي وقع في الدين بيد غيره.

قوله عليه السلام:«أرى تراثي نهبا»:

شبه الخلافة بالتراث فكما أن الميراث لا يصل إلا إلى أشخاص ينتمون لصاحب الميراث نسبا أو أن صاحب الميراث ينصّ عليهم كذلك الخلافةُ لا تتعدا إلا من له صلة قوية في الدين ونص عليه الله تعالى على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.و ذكر «نهبا» ترشيح لأنه مناسب مع المشبه به.

تمثله عليه السلام بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها***و يومُ حَيّان أخي جابر

الكور: الرحل والضمير راجع إلى الناقة في الأبيات التي قبل هذا البيت.

و معنى البيت: فرق بعيد بين يومه في سفره وهو على رحل الناقة وهو في الهاجرة وبين حيان في تنعمه فإنَّ الأول كثير العناء شديد الشقاء والثاني وافر النعيم كثير الراحة.

"أراد بهذا التمثل أن القوم لما فازوا بمآربهم وظفروا بمطالبهم، وحصل ما كان منتهى أمانيهم وهو عليه السلام في كل ذلك محقّ في حقّه مكدّ في نصيبه كان بين حاله وحالهم بونٌ بعيد واختلاف شديد واستعار لفظ يومين وكنّى بهما عن حالهم وحاله وشبه حالهم بيوم حيّان"(الشريف المرتضى، رسائل الشريف المرتضى،1405،ج2–ص 110).

و قد يكون أنه أراد شتان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض عليّ من الأمر ومُنيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة وبين يوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهدة وأركان ثابتة وسكون شامل فانتظم أمره واطرد حاله وسكنت أيامه"(ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة،1405،ج 1،ص168).

قوله عليه السلام: «لشدَّ ما تشطرا ضرعيها»:

شبه عليه السلام الخلافة بالناقة الحلوب الغزيرة الدرّ والمنفعة ثم حذف المشبه والمشبه به وأبقى من المشبه به لوازمه وهو «ضرعيها» على السبيل الإستعارة بالكناية وذكر «تشطرا» ترشيح لأنه يناسب ويلائم المشبه به.

تشطرا أي أخذ كلّ واحد منهما شطرا سمّى شطري الضرع ضرعين مجازا وهو من أبلغ أنواعه حيث إن من ولي الخلافة لا ينال أمرا إلا تاما ولا يجوز أن يترك منه لغيره سهما فأطلق على تناول الأمر واحدا بعد واحد اسم التشطر والإقتسام كأن أحدهما ترك منه شيئا للآخر وأطلق على كل شطر اسم الضرع نظرا لحقيقة ما نال كل واحد."(الشيخ محمد عبده،شرح نهج البلاغة،1436 هق،ص28).

قوله عليه السلام: «فصاحبها كصاحب الصعبة إن أشنق لها خَرَمَ، وإن أسلس لها تقحم.»

إستعارة تمثيلية بديعة قلّما جاد بها الفصحاء إذ إنّه إذا تَرَك الخلافة والسعيَ وراءها أصابه الذِّل والصغار وإذاما سعى لطلبها تسبب في الفوضى وشقٍّ عصا المسلمين وذهاب ريحهم بتفرقهم فكان وهو على هذا الحال يشبه من ركب الصعب من النِّياق إن أشنق لها أودى بأنفها وتسبب في خرمه وإن أسلس لها وأرخى الزمام رمى بنفسه في القُحمَة والهلا ك فهو بين حلينِ أحلاهما مرٌّ.

أو أن المقصود أن صاحب الأمر والذي بيده زمام الأمور إذا حمل الناس بعنف وشدة على الحق ومجانبة الباطل ولم يقصر في شيء ولم يترك أمرا إلا حققه فهو في تضييع الناس في هذه الحالة– لأن الغالب في طبع البشر الميل إلى الرخاء والتسهيل وعدم الإلتزام –كان يشبه حال صاحب الناقة الصعبة التي لا تنقاد لصاحبها فإذا أشنقها خرم جزء منها وإذا تركهم هملا يفعلون ما يشاءون كان هو كمن ترك دابته فأوردته المهلاك.

فصاحبها: أي صاحب الخلافة جعل للخلافة صاحب وصحبة على طريق التوسع في الكلام.

قوله عليه السلا: «فمني الناس بخبط»:

هذا الكلام وارد على سبيل الإستعارة لأنه عليه السلام يشبه حال صاحب الأمر حيث لا يدري أي طريق يسلكه بهم- أيسلك به الطريق الأول بأن يحملهم على الشدة والعنف فيخشى عليهم المهالك أو يسلك بهم الثانية بأن يُرخي لهم الزمام فيخاف عليهم الضياع- بالبعير الذي الذي يخبط خبط عشواء تراه يسير على غير هدى ويتعسف بصاحبه.

قوله عليه السلام:«إعتراض»:

الإعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عرضا في حال سيره طولا. شبه خبط صاحب الأمر وعدم علمه بأن يسلك أي المسلكين بالناس بالفرس الذي لم يروض فهو يسير في العرض بدل أن يسير في الطول فيضيّع صاحبه ويورده سوء الموارد.

قوله عليه السلام: «لكنني أسففت إذا أسفُّوا وطرت إذا طاروا».

استعارة مكنية تخيلية شبه الإمام عليه السلام نفسه بالطائر التابع لجماعة الطيور في النزول إلى مكان ما أو الصعود إليه يريد عليه السلام أني لم أخالفهم في شيء عقدوه.

قوله عليه السلام «إلى أن قام ثالث القوم نافجا حِضنَيه بين نَثيله ومعتلفه».

الكلام وارد على سبيل الإستعارة التمثيلية وهو من أشد الذم يشبه عليه السلام حال ثالث القوم وهو لا يكترث إلا لمطعمه ومشربه ويأكل ما يجد دون أن يفرق بين ما يكون هو من حقّه وما هو من حق الناس بحال الدابة التي لا تعرف غير موضع العلف تأكل وتطعم فيه وموضع الروث تقضي فيه ما تقضي أي أنه لا يهتم لغير بطنه وكأنه خرج عن الانسانية.

الكناية

الكناية:"هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره بالفظ الموضوع له ولكن يجيء إلى معنى هو مرادفه فيوميء به إلى المعنى الأول ويجعله دليلا عليه"(أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة،1388،ص 360).

"أن الفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصليّ غير معناها، فلايخلو إما أن يكون معناها مقصودا أيضا ليكون دالا على ذلك الغرض الأصلي وإما لا يكون كذلك فالأول هو الكناية والثاني المجاز"(الفخر الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،2004،ص160).

وأمّا عن بلاغة الكناية وجمالها وفضلها على التصريح فيقول عبدالقاهر:"عندما يرمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له يدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويلتبس به ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات له لا من جهة الظاهرة المعروفة بل من طريق يخفى ومسك يدق ومثاله قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى***في قبة ضربت على بن الحشرج

أراد كما لا يخفى أن يثبت المعاني والأوصاف خلالا للمدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح فيقول: إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشرج ومقصورة عليه ومختصة به، وماشاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف المذكورين بها وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة، ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا"(عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1424،ص216).

ويقول عبد القاهر في موطن آخر عن تفوق الكناية على تصريح:"ليس المعنى إذا قلنا الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى أنك زدت في في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وآشدّ. فليست العزيمة في قولهم جم الرماد أنه أدل على قرى أكثر بل أنت أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق"(عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 1424،ص 57).

وإليك بعض النماذج التي وردت في هذه الخطبة وهي قمة الجمال:

قوله عليه السلام:«لا يرقى إليّ الطير»:

كناية عن غاية أخرى من العلوّ إذ ليس كل مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل وجب ألا يرقى إليه الطير فكان ذلك علوا أزيدكما قال أبو تمام:

مكارم لجت في علوّ كأنما ***تحاول ثارا عند بعض الكواكب.

قوله عليه السلام: «سدلت دونها ثوبا»:

الضمير للخلافة وسدل الثوب أي أرخاه والكلام كناية عن الإعراض وغضّ النظر عن الشيء.

قوله عليه السلام: «وطفقت أرتئي بين أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء»:

الصول باليد الجذّاء كناية عن فقدان الناصر والمعين لأن من جذّت يده فقد التصرف الكامل بها.

قوله عليه السلام: «حتي مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده»:

"مضى لسبيله كناية عن موته والسبيل الطريق وتقديره مضى على سبيله وتجيء الام بمعنى على كقوله

فخر صريعا لليدين والفم.

يغلظ كلمها: كناية عن الكلام الموجع والمؤلم.

يخشن مسها: كناية الجفاء وسوء الخلق والغلظة التي ينفر منها الجميع.

يكثر العثار والإعتذار منها: كناية عن الأخطاء في تطبيق الأحكام والعدول عن الصواب لأن من كثر زلاته احتاج إلى الإعتذار.

قوله عليه السلام: «فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها»:

إن قيل: قد قال عليه السلام في حوزة خشناء فكيف أعاد ذكر الخشونة «يخشن مسها»؟

قيل: الإعتبار مختلف لأن مراده في حوزة خشناء أي لا ينال ما عندها ولا يرام، يقال: إن فلانا لخشن الجانب ووعر الجانب ومراده بقوله يخشن مسها أي تؤذي وتضر وتنكي من يمسها يصف جفاء أخلاق الوالي المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته.

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى، والمراد ههناما لم تكن على وجه الإستعارة التحقيقية والإستعارة بالكناية والتجريد"(سعد الدين التفتازاني، مختصر المعاني،1431،ص87).

"والتشبيه إما أن يكون المشبه والمشبه به محسوسين أو معقولين أو المشبه معقولا والمشبه به محسوسا أو المشبه محسوسا والمشبه به معقولا.

فالقسم الأول كقوله تعالى:«والقمر قدرناه منازلا حتى عاد كالعرجون القديم وقوله تعالى «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» وقوله تعالى «كأنهم أعجار نخل خاوية» .ثم لابد أن يكونا شتركين من وجه ومختلفين من وجه، ولا يخلو إما أن يكون اشتاكهما في الذات واختلافهما في الصفات وإما أن يكونا بالعكس. فالأول، مثل تشبيه العدو بالطيران لأنه ليس الإختلاف بينهما إلا بالسرعة والبطؤ والثاني كتشبيه الشعر بالليل والوجه بالنهار.

القسم الثاني: كتشبيه الموجود العاري عن الفوائد بالمعدوم.

القسم الثالث: كقوله تعالى:«والذين كفروا أعمالهم بقيعة يحبه الظمآن ماء» وقوله تعالى:«مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ».

والقسم الرابع: غير جائز، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها "(الفخر الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،2004،ص 103-104).

"وللتشبيه روعة وجمال وموقع حسن وذلك لإخراجه الخفيّ إلى الجليّ وإدنائه البعيد من القريب يزيد المعاني رفعة ووضوحا ويكسبها جمالا وفضلا ويكسوها شرفا ونبلا"(أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة،1388،ص264)

قوله عليه السلام: «محلي منها محل القطب من الرحا».

هذا الكلام قاله عليه السلام في مقابلة «لقد تقمصها فلان» لأن من كانت نسبته تجاه الخلافة نسبة مَن لبس قميصا ليس له كذلك من كان محله من الخلافة محل القطب من رحا فقد قدر الأمور أحسن تقدير وجعل كل شيء موضعه لأن نسبة القطب من الرحا أحسن النسب. وهو في هذا الكلا شبه نفسه بالقطب وشبه الخلافة بالرحا وهو من قبيل التشبيه الذي طرفاه حسيان.

"هذا النمط خارج عن الإستعارة وهو من التشبيه المحض والتوسع يقول: إن الرحى لا تدور إلا على قطب ودورانها بغير قطب لا ثمرة له ولا فائدة فيه كذلك نسبتي إلى الخلافة فإنها لا تقوم إلا بي ولا يدور أمرها إلا عليّ وهو في رأي ابن ابى الحديد أنّ عليا عليه السلام من الخلافة في الصميم وفي وسطها وبحبوبحتها كما أن القطب وسط دائرة الرحى ؛قال أمية بن أبي الصلت:

فحللت منها بالبطاح***و حلّ غيرك بالظواهر"(ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة،1415،ج1 ص 54).

وقوله عليه السلام: «وكبت به بطنته».

البطنة بكسر الباء البطر والأشر. الكلام مشتمل على استعارة مكنية تخييلية، مكنى بها عن أن ارتكابه للأمور المذمومة من التنعم والترفه في المطعم والمشرب والتوسع ببيت المال، صار سببا لقتله مستدعية لتشبيه بطنته التي هي كناية عن كثرة الأكل من مال المسلمين بالفرس المركوب.

ووجه الشبه: أنه مدة خلافته متمكن عليها مستمرة وهي تنقله من تدبير إلى تدبير وأمر إلى أمر، يعني كان مطيعا لها منقادا، كما أن الراكب متمكن على المركوب وهو ينقله من مكان إلى مكان بحيث سلّم حركته بالكلية إليه وفوّض سيره إليه وهو عقلي وتخييل أنها فرد من أفراد المركوب وإلا لما صحّ إسناد الكبو الذي هو حقيقة في الحيوان إليها."(عادل الأسدي، من بلاغة الإمام علي في نهج البلاغة،1427،ص107)

المجاز: هو مفرد ومركب، أما فهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجهٍ يصحّ مع قرينة عدم إرادته، فلابدّ من العلاقة ليخرج الغلط والكناية (التفتازاني،1431 هـ،336).

قوله عليه السلام «طخية» بمعنى الظلمة و" نسبة العمى إلى الظلمة مجاز عقلي. و إنما يعمى القائمون فيها إذ لا يهتدون إلى الحقّ وهو تأكيد لظلام الحال واسودادها(الشيخ محمد عبده، شرح نهج البلاغة،1436ص27)

قوله عليه السلام: «فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها»:

و وصف الكلم بأنه يغلظ من باب الإسنادي المجازي كما قال تعالى: ونجيناهم من عذاب غليظ. أي عذاب متضاعف.

قوله عليه السلام: «أجهز عليه عمله».

مجاز عقلي أسند الإجهاز والقتل للعمل وإنما العمل سبب ذلك وهذا المجاز من أبلغ أنواعه لأن عمله القبيح سبب تحريك الهمة والعزيمة عند من أن أرادوا قتله فكأن عمله هو من قتله.

المعاني في الخطبة:

المعاني: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال. و ينحصر في ثمانية أبواب:1-أحوال الإسناد الخبري.2-أحوال المسند إليه.3-أحوال المسند.4-أحوال متعلقات الفعل.5-القصر.6-الإنشاء.7-الفصل والوصل.8-الإيجاز والإطناب والمساوات.(سعدالدين التفتازاني،المطول،1387،ص18).

قوله عليه السلام: «و الله لقد تقمصها فلان»:

هذا الكلام لا يقال إلا عندما يكون المخاطب طالب بالنسبة متحيرا فيها، ولذلك أكثر من ذكر المؤكدات.

الحذف في قوله «أما والله» "لأنه لما كان يكثر القسم في الكلام اختصر فيه فصار فعل القسم يحذف، ويكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة، والتاء في اسم الله تعالى، كقوله تعالى:«تالله لأكيدنّ أصنامكم»" (جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،1434،ج2،ص261).

قوله عليه السلام: «و إنه ليعلم...» فيه ثلاث فوائد:

"**أولا:** تنزيل «فلان» العالم بمنزلة الجاهل المنكر المصرّ، وتنزيل المخاطبين العالمين منزلة المنكرين، لذلك صدّر الجملة «بإن والام» المؤكدين للتحقيق.

ثانيا: أنه أورد المعنى المراد في الجملة الفعلية الدالة على التجدد، وعلى أنّ هذا العلم قد حصل له بالنص من رسول الله صلى الله عليه وآله وبمشاهدة فعاله وأقواله المحركتين على منوال الإستقامة والعدل.

ثالثا: أنه قد أتى بافعل للإستقبال بعد ذكر فاعله، ليدل على الإستمرار والثبوت ويجدد العلم آن بعد آن دلالة قوله تعالى:«الله يستهزيء بهم» على الاستمرار"(عدل حسن الاسدي، من بلاغة الامام على في نهج البلاغة،1427ص 92-93).

قوله عليه السلام:« ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير»:

الإطناب في هذه الفقرة جلي لإنه عليه السلام أكد الأولى بما هو أبلغ ومن ديدن البلاغة أن يطنوبوا في مقام المدح.

و قوله عليه السلام: «فطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية عمياء إلى أخر القصة»:

"فيه تقديم وتأخير لأنه ل يجوز أن يسدل دونها ثوبا ويطوي عنها كشحا ثم يطفق يرتئي أن ينابذهم أو يصبر ألا ترى أنه إذا أسدل دونها ثوبا وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ومن يترك ويصرم لا يرتئي في المنابذة. والتقديم والتأخير طريق لاحب وسبيل مهيع في لغة العرب قال سبحانه وتعالى سبحان الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما أي أنزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا وهذا كثير"(ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1415،1،ج 1،ص 55).

قوله عليه السلام:« فيا لله وللشورى».

هذه الصورة تعكس لنا الصورة والحالة النفسية لدى الإمام ومدى حزنه وضجره من الشورى وأمرها وهي مع قصرها وقلة حروفها تعطينا كبير معنى عن حزن الإمام وتحسره ووجعه في تلك الساعات والأيام؛ وتكشف لنا جسيم الحزن ومبلغه من الإمام صلوات الله وسلامه عليه. و كأنك ترى وتسمع الإمام يتنفس الصعداء ويتنهد من الغم والحزن فما أبلغه من كلام.

قوله عليه السلام:« متى أعترض الريب فيّ مع الأول حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر».

قوله عليه السلام «متى» استفهام خرج عن معناه واستعمل في الإستباد والتعجب والإستنكار مجازا.

قوله عليه السلام«هذه النظائر».

استخدم اسم الإشارة القريب لتقليل شأن المشار إليه وللتهكم به ووصف وضاعته، و لم يذكر أسماء المشارإليهم إما لعدم الإكتراث لهم والمبالاة أو أن التحسر بلغ من الإمام مبلغا لا يستطيع أن يذكر الأسماء فاحترز عن الإطناب والتطويل.

البديع في الخطبة:

البديع: هو علم يعرف به الوجوه، و المزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه بهاء ورونقا، بعد مطابقته لمقتضى الحال، مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنىً(-أحمد لهاشمي، جواهر البلاغة،1388،ص 377-378).

قوله عليه السلام:«ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير»:

في هذا الكلام إغراق لأنه يمتنع في العادة أن يكون هناك مكان يصله البشر دون الطير لكن هذا لا يمتنع عقلا.

الطباق بين «ينحدر-يرقى» مما يضفي جمالية خلابة للنص من خلال الجمع بين الأضداد.

السيل والطير بينمهما سجع متوازي.

قوله عليه السلام:« يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير»:

هذا الكلا جميل في لفظه ومعناه لأنه دمج فيه علم البيان كما ذكرنا من الإستعارات والبديع من سجع متوازي وترصيع وطباق.

قوله عليه السلام: «فصاحبها كصاحب الصعبة، إن أشنق لها خَرَمَ، وإن أسلس لها تقحم.»

الام في قوله «أشنق لها» زائدة للتحلية ولتشاكل أسلس. لأنهم يقون أشنقها.

نتائج البحث:

1- يستفيد الإمام عليه السلام من البلاغة وفنونها من مجاز وكناية واستعارة وتمثيل لإضفاء احساس حسي مملوس يعكس جمالا فنيا.

2- يورد الإمام عليه السلام كلامه في هذه الخطبة رصينا محكم السرد ينسجم تماما مع حاله وحزنه جرّاء ما حصل للأمة الإسلامية وله آنذاك.

3- يمنتقي مفردات وتمثيلات وكنايات واستعارات ملئها الصدق والعاطفة توصل ذلك الإحساس وما يغلى في صدر الإمام عليه السلام من ضيق وغمّ.

4- الخطبة يتولد فيها إيقاع وموسيقى ذات طنين حزين بسب جو الخطبة والتساوي بين الفواصل الذي يهتم له الإمام ويورده عفوا.

5- المعاني مترابطة متناسقة متماسكة بعضها ببعض حتى تبدو وكأنها ماء جار.

6- هناك تكريم للمعاني على الألفاظ مع حفظ شأن الألفاظ بأن تسف أو تضعف.

7- الألفاظ ذات أثر متين، كبيرة التأثير، بينة الدلالة على المعنى المقصود، وتتصف بالجزالة وسهولة المنطق وجمال الوقع والقدرة على الإيحاء بالجو العاطفي الملائم لمضمونها.

المصادر

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن-جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم- قم: ذوي القربى- الطبعة الثالثة 1434هـ ق.
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الخطيب القزويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، منشورات دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى144 هـ ق.أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى:1422 هـ ق.
- بحار الأنوار-محمد باقر المجلسي- بيروت: دار إحياء التراث العربي،1403 هـ ق.
- البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع-على الجارم ومصطفى أمين-طهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر-الطبعة الثانية1320ق.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع -أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي الأزهري المصري- قم: انتشارات دار الفكر -الطبعة الثانية 1388 هـ ق.
- الجرجاني، الإمام عبد القاهر، ***دلائل الإعجاز***، شرح وتعليق د. محمد عبدالمنعم خفاجي، الطبعة الأولى، دار الجيل لا مكان،2004م -1424هـ.
- رسائل الشريف المرتضى- الشريف علي بن الحسين الموسوي- قم: دار القرآن الكريم-1405هـ.
- شرح نهج البلاغة-الشيخ محمد عبده- بيروت: منشورات الفجر-الطبعة الأولى1436هـ ق.
- شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد، عزالدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني، بيروت: مؤسسة الأعلمي،1415هـ-1995م.
-شرح المختصر -سعد الدين التفتازاني- قم: منشورات اسماعليان-الطبعة السادسة1431هـ ق.
-كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر- أبوهلال العسكري-الأستانة العلية: محمود بك- الطبعة 1319هـ.
الوظيفة الجمالية للصورة الفنية في ضوء الفهم التراثي للإستعارة، نور الدين حمادي، جامعة الإمام آبن باديس،العدد22/جوان2015.
-المطول شرح تلخيص المفتاح-سعد الدين التفتازاني- دار الكوخ للطباعة والنشر-الطبعة الأولى1387هـ ش.

-السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، الدار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية:1407هـ.

-من بلاغة الإمام عليّ في نهج البلاغة-عادل حسن الأسدي-قم: مؤسسة المحبين-الطبعة الأولى1427هـ ق.

مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، منشورات اسماعليان، الطبعة السادسة،1431 هـ ق.

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1424 هـ ق